الاحتجاج بالآباء في القرآن الكريم
(دراسة موضوعية)

محمد طاهر أحمد العبيدي
Moh1983taher@gmail.com

ملخص الدراسة

تضمنت هذه الدراسة بيانا لماهية الاحتجاج بالآباء وأنواعه، وأنماطه في القرآن الكريم، وما اقترن به من حجج كالاحتجاج ببعث الآباء أو نفي السماع وصلة ذلك بالمجتمع الجاهلي الوثني، ثم عرضت الدراسة إلى الأسباب الدافعة للاحتجاج بالآباء وما يكتنفها من وسوسة وتعطيل للعقل وتخرص وظنون كاذبة لا تقوم على حجة ولا تستند إلى برهان، وما تضمن ذلك من الآثار السلبية على الفرد والمجتمع من انتشار البدع والضلالات، وإغراق المجتمع بالجهل والفرقة والانقسام، كما عرجت الدراسة على الأسلوب الحكيم للقرآن الكريم في علاج هذه القضية على مستوييه: الفردي والجماعي، وأنه لا حصانة من التقليد إلا بالعلم وإعمال العقل ونشر الوعي.

Abstract

This study included an explanation of the nature of the invocation of the fathers, and its types, and its uses in the Qur'anic systems, and the arguments associated with it, such as denying hearing and invoking the existence, as it directed the context in different directions and showed the connection of the invocation of the fathers with the pre-Islamic pagan society. Then the study presented the reasons for celebrating the forefathers and what surrounds them of whispers, disruption of the mind, delusions, and false assumptions that are not established by an argument or supported by evidence, and what this includes the effects on the individual and society of the spread of heresies and delusions, and drowning in ignorance, band and split. The study also looked at the wise method of the Holy Qur'an in dealing with this issue on its two levels: individual and collective, and that there is no immunity from imitation except with knowledge and the implementation of reason and spreading awareness.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وبعد:

فإن تعظيم الآباء سمة مرتبطة بثقافة موغلة في القدم لا مناص عنها، وهو ما قد يدفع بعض الأبناء إلى المغالة في تقديس آبائهم والاحتجاج بما كانوا عليه من عادات وتقاليد، في حين يقف الطرف الآخر على النقيض من ذلك أو الحياد، فيتمسك كل طرف منهم بما كان عليه سلفه من أساطير وخرافات تعيق نور الحقيقة، وتذكي نيران الطائفية، فيتفرق أبناء الوطن الواحد وتنشب بينهم حرب لا هوادة فيها؛ لنصرة مآثر ورثوها لا تُصلح وطنا، ولا تبني حجرا، ولا تعيد سيادة مزعومة.

فاستدعاء الماضي يشوش العقول ويجعلها حبيسة زمان ومكان ليس زمانها ولا مكانها، قد يمتد لقرون غابرة، حين كانت الحياة عادة يومية رتيبة من الحل والترحال، وليس هذا تقليلا من شأن أولئك فقد عاشوا في إطار ما أتيح لهم، غير أن التعلق بالموروث يؤدي إلى تصادم خرافات الماضي مع حقائق الحاضر فيرتبك المقلد في ظل التسارع الحضاري.

وقد جاء القرآن الكريم لكسر قيود التقليد وإطلاق العنان لحرية التفكير سعيا لرقي المجتمع، وتحكيم العقل والمنطق بعيدا عما تشربت به النفوس من مآثر جامدة؛ إذ الاحتكام إلى الحقائق أولى من الاحتكام إلى الخرافات والأساطير، ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: 25].

- **أهمية الدراسة:**

لما كان الاحتجاج بالآباء وما كانوا عليه يؤدي إلى شرخ في المجتمع، وتفكيك لنسيجه الديني والوطني، وكانت الحاجة ماسة لما يجمع ويؤلف بين القلوب، في زمن كثر فيه الدجالون ومشعلو الفتن والحروب، وقل فيه المصلحون وخفتت أصوتهم فلا تسمع إلا همسا؛ ومن أجل ذلك كله قرر الباحث تناول هذا الموضوع في ضوء القرآن الكريم.

- **مشكلة الدراسة:**

تتلخص مشكلة البحث في سؤال رئيسي: **ما هي قضايا الاحتجاج بالآباء في القرآن الكريم؟**

ويتفرع عنه الأسئلة الفرعية التالية:

- **ما معنى الاحتجاج بالآباء، وما حكمه؟**
- **لماذا احتجوا بالآباء وما آثار ذلك على المجتمع؟**
- **كيف عالج القرآن الكريم قضية الاحتجاج بالآباء؟**

- **أهداف الدراسة:**

وتكمن أهداف الدراسة في عوامل وقضايا كثيرة أهمها:

- بيان الآيات التي تحدثت عن الاحتجاج بالآباء، وتسليط الضوء عليها من خلال السياقات التي وردت فيها، وبيان ما ترشد إليه الحوارات.
- التعريف بأسباب الاحتجاج بالآباء وما نتج عنها من آثار، وصولا إلى علاج المسببات.
- بيان ما يخلفه الاحتجاج بالآباء من آثار سلبية على المجتمع.

- **الدراسات السابقة:**

مما لا شك فيه أن الاحتجاج قد تناوله القدماء والمحدثون بشكل عام، كما قد بُحث الحجاج في القرآن برسالة ماجستير بعنوان: **(معاني ألفاظ الحجاج في القرآن الكريم وسياقاتها المختلفة، السبع الطوال أنموذجا – دارسة معجمية)**، لسعيد فاهم، قسم اللغة العربية – كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مولود معمري – الجزائر، 2011م، وهي دراسة معجمية عامة في ألفاظ الحجاج وليست دراسة موضوعية، غير أن البحث في الاحتجاج بالآباء في القرآن الكريم لم أقف على من أفرده بالبحث والدراسة في حدود علمي.

- **منهج الدراسة:**

اعتمد الباحث المنهج الاستقرائي والتحليلي من خلال تتبع الآيات حسب منهجية التفسير الموضوعي.

- **محتويات الدراسة:**

المقدمة

المبحث الأول: الاحتجاج بالآباء: (تعريفه، أنواعه، حكمه، أنماطه)، وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: مفهوم الاحتجاج بالآباء

المطلب الثاني: أنواع الاحتجاج بالآباء

المطلب الثالث: حكم الاحتجاج بالآباء

المطلب الرابع: أنماط الاحتجاج بالآباء في القرآن الكريم

المبحث الثاني: أسباب الاحتجاج بالآباء وآثاره، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: أسباب الاحتجاج بالآباء

المطلب الثاني: آثار الاحتجاج بالآباء على المجتمع

المبحث الثالث: علاج الاحتجاج الآباء، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: العلاج على مستوى الأفراد

المطلب الثاني: العلاج على مستوى الجماعات

الخاتمة: وتتضمن أهم النتائج والتوصيات.

المبحث الأول

الاحتجاج بالآباء (مفهومه، أنواعه، حكمه، أنماطه)

المطلب الأول: مفهوم الاحتجاج بالآباء

أولا: الاحتجاج لغة

الاحتِجَاج مصدر احتجَّ، يقال: احْتَجَّ بالشيء: اتخذه حُجَّة، والحُجة: البرهان، قال الأَزهري: "إنما سميت حُجَّة لأَنها تُحَجُّ، أَي: تُقصد"[1]، وحاجَجْتُه أُحاجُّه حِجاجاً ومُحاجَّةً حتى حَجَجْتُه، أَي: غلبتُه بالحُجَجِ التي أَدْلَيْتُ بها، ومن أمثال العرب: (لَجَّ فَحَجَّ)، معناه: لَجَّ فغلب من لاجَّه بحُجَجِه، وفي الحديث: «**فَحَجَّ آدم موسى**»[2] أَي: غلبه بالحُجَّة، والجمع حُجَج، والمصدر الحِجَاج[3]، والمَحَجَّةُ: الطريق، والحَجَوَّجُ: الطريق تستقيم مرّة وتعوج أخرى[4].

ثانيا: الاحتجاج اصطلاحا

يحسن تعريف الحجة قبل بيان مفهوم الاحتجاج اصطلاحا؛ لأنها مادته وأساسه، وقد عُرِّفت الحجة بعدة تعريفات منها:

- ما دُلَّ به على صحة الدعوى، وقيل الحجة والدليل واحد[5].
- كلام ينشأ عن مقدمات يقينية مركبة تركيبا صحيحا[6]، وهذا التعريف عند الفلاسفة.
- "والحجة في كلام العرب: ما يقصد به إثبات المُخالِف، بحيث لا يجد منه تفصيا، ولذلك يقال للذي غلب مخالفه بحجته: قد حجَّه.
- وأما الاحتجاج: **فهو إتيان المحتج بما يظنه حجة ولو مغالطة**، يقال: احتجَّ، ويقال: حاجَّ إذا أتى بما يظنه حجة، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ﴾ **[البقرة: 258]**، فالحجة لا تطلق حقيقة إلا على البرهان والدليل الناهض المبكت للمخالف، وأما إطلاقها على الشبهة فمجاز"[7]؛ وعليه يمكن تعريف الاحتجاج اصطلاحا: **بأنه الإتيان بدليل أو شبهة تدفع بها الخصم.**

المطلب الثاني: أنواع الاحتجاج بالآباء

الاحتجاج بالآباء بحسب الحجة وعدمها ينقسم إلى نوعين[8]، وهما:

أولا: الاتباع

ويطلق على من سار على خطى الآباء بالدليل والحجة، وهذا النوع يختص باتباع المؤمنين للأنبياء وما أنزل عليهم من الوحي، ومن ذلك قوله تعالى حكاية على لسان يوسف: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ ذَٰلِكَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ **[يوسف: 38]**، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا

وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل: 123]، وقال: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ﴾ [الحج: 78] فهو اتباع للموحدين بعيدا عن الشرك والأهواء.

ثانيا: التقليد

ويقصد به السير على عادات وتقاليد الآباء بغير حجة ولا دليل[9]، وهذا النوع يرد في القرآن على سبيل الذم، ويختص بالمشركين وتقليدهم لآبائهم وما كانوا عليه من البدع والضلالات، ومنه قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ [الأنعام: 148]، ﴿أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [الأعراف: 172، 173].

وعليه فالفرق بين النوعين بالأدلة والبراهين، فما كان مدعما بالأدلة والوحي سمي ابتاعا، وما كان بلا حجة ولا دليل سمي تقليدا، وما ذكره المتقدمون من الفرق بين التقليد والاتباع ليس مبنيًا على استقراء آيات القرآن، وإنما هو اصطلاح بينهم، أما القرآن فلم يفرق بين المصطلحين، حيث استعمل الاتباع بمعنى التقليد، في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ٢٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ [لقمان: 20، 21]، وهو اتباع بلا علم ولا دليل ولا هدى، ولا مشاحة في الاصطلاح.

المطلب الثالث: حكم الاحتجاج بالآباء

أولا: التقليد وأقوال العلماء فيه

لم يأت الإسلام ليلغي مآثر الآباء والأجداد من جذورها، وإنما جاء ليبقي على محاسن أفعالهم، ويصحح مسارهم فيما خرجوا به عن الجادة، قال (ﷺ): «**إن الله كريم يحب الكرم، ومعالي الأخلاق، ويبغض سَفْسَافَها**»[10]، وقد أقرَّ الإسلام الكثير محاسن الأخلاق التي كانوا عليها، كما أوضح القرآن مساوئ التقليد، وأخبر ما كان يلاقيه الأنبياء في سبيل كسر تلك القيود، ومنهم إبراهيم (عليه السلام)، الذي ألهمه الله الحجة والبيان، قال تعالى: ﴿إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: 52– 53]، فلم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم؛ فجاءهم الرد: ﴿لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الأنبياء: 54]، أي: الكلام مع آبائكم الذين احتججتم بصنيعهم كالكلام معكم، فأنتم وهم في ضلال على غير الطريق المستقيم[11]، "وقد احتج العلماء بهذه الآيات في إبطال التقليد، ولم يمنعهم كفر أولئك من الاحتجاج بها؛ لأن التشبيه لم يقع من جهة كفر أحدهما وإيمان الآخر، وإنما وقع التشبيه بين التقليدين بغير حجة للمقلد"[12].

وأما التقليد المذموم: هو قبول قول الغير بلا حجة، إما للعادة كاتباع الآباء، وإما للرئاسة كاتباع الأكابر والسادة، وقد بين الله أن الواجب الإعراض عن هذا التقليد إلى اتباع ما أنزله على رسله، فإنهم حجة الله التي أعذر الله بها إلى خلقه[13]، ﴿مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [الإسراء: 15].

ويخرج من ذلك تقليد العامة لعلمائهم عند النوازل؛ لجهلهم بالحجة ولسوء إدراكهم، فالعلم درجات لا سبيل إلى أعلاها إلا بنيل أسفلها، وهذا هو الحائل بين العامة وبين طلب الحجة، ولم يختلف العلماء أن العامة عليهم تقليد علمائهم، وأنهم المقصودون بقول الله عز وجل: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأنبياء: 7][14].

ثانيا: تحكيم الأعراف والعادات الجاهلية

شدد القرآن على من يحتكمون إلى عادات وأعراف الجاهلية المخالفة للشرع، فقال تعالى: ﴿أَفَحُكۡمَ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَبۡغُونَۚ وَمَنۡ أَحۡسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكۡمٗا لِّقَوۡمٖ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50]، فأنكر الله تعالى على من خرج عن حكم الله المُحْكَم المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شرٍ، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات، التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله[15]،

"فلا ثَمَّ إلا حكم الله ورسوله، أو حكم الجاهلية، فمن أعرض عن الأول ابتلي بالثاني المبني على الجهل، والظلم، والغي؛ ولهذا أضافه الله للجاهلية، وأما حكم الله تعالى فمبني على العلم، والعدل والقسط، والنور والهدى، ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: 50]"[16].

وقد وازنت الشريعة بين العادات والأعراف الجاهلية، حيث أقرت ما وافق الشرع وألغت ما خالفه، فمما أقرّته: البيع، والشركة، والوكالة، والرهن، والإجارة، ومما ألغته: بيع المنابذة، وبيع الملامسة، وتلقي الركبان، وبيع الحاضر للباد، ومن العادات التي ذمها القرآن ما جاء في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [المائدة: 103، 104]، هذه أحكام ابتدعوها، فردّهم الحقّ سبحانه عن الابتداع، وأمرهم بحسن الاتّباع، وأخبر أنّ ما صدر من عاداتهم لا يعدّ من جملة عباداتهم، وإذا هتفت بهم دواعي الحقّ بالجنوح إلى وصف الصدق، صدّهم عن الإجابة ما اعتادوا عليه من سهولة التقليد[17].

على أن الشريعة أقرت العرف الذي لا يخالف روح النص ولا يعارضه، مما ألفه الناس في كل زمان ومكان، وهو ما يعرف بتحكيم العادة، قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199]، فالعرف هو كل ما عرفته النفوس مما لا يخالف الشريعة، ولا يتعارض معها[18]، أما ما يصادم النص من الأعراف والتقاليد، فجاء النص صريحا في رده: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65]، وعليه فالشرع حاكم على العرف، لا العكس.

المطلب الرابع: أنماط الاحتجاج بالآباء في القرآن الكريم

ورد الاحتجاج بالآباء في القرآن الكريم في ثلاثة وعشرين موضعا، مبثوثة في ثمان عشرة سورة[19]، كلها مكية عدا آية واحدة في سورة المائدة[20]، ويستشف من ذلك أن نمط الاحتجاج بالآباء وثيق الصلة بالمجتمع الجاهلي الوثني، وكذلك القول في آية المائدة فإنها تحدثت عن مشركي العرب جميعا وما كانوا عليه من عادات وتقاليد، وقد ورد الاحتجاج بالآباء في القرآن الكريم بأنماط متعددة أبرزها ما يلي:

أولا: الاحتجاج ببعث الآباء

جاء التصريح بالاحتجاج ببعث الآباء وطلب إحيائهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: 24، 25]، وهي الآية الوحيدة التي صرحت بلفظ الاحتجاج بالآباء.

حيث أصدر المشركون دعوى أن حياتهم هي الدنيا وأن الذي يهلكهم هو الدهر، وفي معرض احتجاجهم قدموا الموت على الحياة، قيل: فيه تقديم وتأخير، أي: نحيا ونموت لأنهم كانوا ينكرون البعث بعد الموت، وقيل: يموت الآباء ويحيا الأبناء، وقيل: يموت قوم ويحيا قوم[21]، وقيل: نكون أمواتا نطفا في الأصلاب، ونحيا بعد ذلك[22]، وكل ما ذكروه محتمل، ويظهر لي أن التقديم وقع بناء على عادتهم من تقديم الموت على الحياة في مواطن النزاع، وهذا موطن تحد ومحاجه، وقد أشتد عليهم النزاع وضاقوا ذرعا بالآيات البينات فصرخوا بالموت قبل الحياة، وهو المعهود من الخصومة والنزاع، ومقصدهم إنكار الآخرة، أو لعلهم كانوا على مذهب الدهرية[23]؛ لقولهم: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: 24]، فإنهم لم يذكروا شبهة ضعيفة ولا قوية، ولكنه خطر ببالهم خاطر فجزموا به، وأصروا عليه، من غير حجة ولا بينة[24].

وقرئ (حجتهم) بالنصب والرفع على تقديم خبر كان وتأخيره[25]، وسماها القرآن حجة؛ لأنهم أدلوا بها كما يدلى المحتج بحجته وساقوه مساقها، فسميت حجة على سبيل التهكم، أو لأنه في حسبانهم وتقديرهم حجة[26]، وما قالوه نظرة سطحية لا تدرك نواميس الخلق، وسر الحياة والموت الكامن وراءهما، وقد أجاب الله جل جلاله عن هذه الدعوى، فقال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 79]، فالذي أحياكم أول مرة أليس بقادر على أن يبعث الموتى[27]، وبالرغم من سذاجة تلك الدعوى إلا أنها استحكمت على عقولهم، فأكثروا من الاحتجاج بها، ومن ذلك: ﴿قَالُوٓاْ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝٨٢ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ [المؤمنون: 82، 83]، ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ﴾ [النمل: 67]، ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۝١٦ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات: 16، 17].

ثانيا: الاحتجاج بعدم السماع من الآباء

- **مُحاجَّة قوم نوح (عليه السلام) بعدم السماع من آبائهم:**

إن نوحاً (عليه السلام) أقام في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، يدعوهم إلى توحيد الله صابرا محتسبا، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ۝٢٣ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ **[المؤمنون: 23، 24]**، فقالت جماعة أشراف قوم نوح – الذين جحدوا توحيد الله، وكذبوه– لقومهم: ما نوح أيها القوم إلا بشر مثلكم، يريد أن يصير له الفضل عليكم ويرأسكم، فيكون متبوعا وأنتم له تبع، ولو شاء الله أن لا نعبد شيئًا سواه لأرسل ملائكة تدعوكم إليه وتؤدّي إليكم رسالته، فما كان حجتهم إلا أن قالوا: (مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا) أي بالذي يدعونا إليه نوح، من أنه لا إله لنا غير الله في القرون الماضية[28]، أو بمثل هذا الذي يدعى وهو بشر أنه رسول الله، قال الزمخشري: "وما أعجب شأن الضلال لم يرضوا للنبوّة ببشر وقد رضوا للإلهية بحجر"[29]، وفي قوله: (مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا) دليل على أنهم وآباؤهم كانوا في فترة متطاولة[30].

ولما كان قوم نوح لا يعولون في شيء من مذاهبهم إلا على التقليد والرجوع إلى قول الآباء، ولم يجدوا في نبوة نوح (عليه السلام) هذه الطريقة (التقليد) حكموا بفسادها[31]، ولم يقنعوا بذلك حتى ضموا إليه الكذب البحت، والبهت الصراح، فقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ **[المؤمنون: 25]**، أي: به جنون لا يدري ما يقول[32]، وما ذاك إلا لأنهم أتخذوا الذاتية فيما يُلبّي رغباتهم وشهواتهم وانحرافاتهم، وأتخذوا التقليد فيما يُقلّل تكليفهم؛ لذلك يتمرد هؤلاء وأشباههم على منهج الله[33]، "فيطمس التقليد على حركة الفكر وحرية القلب، فلا يتدبر الناس ما هو بين أيديهم من القضايا، ليهتدوا على ضوء الواقع إلى حكم مباشر عليها"[34].

- **مُحاجَّة قوم موسى (عليه السلام) بنفي السماع من آبائهم:**

أرسل الله نبيه موسى (عليه السلام) إلى فرعون وملائه، داعيا إلى الحق سبحانه بالآيات والحجج والبراهين، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ **[القصص: 36]**، فلما جاء موسى إلى فرعون وملأه بالأدلة والحجج، حجج شاهدة بحقيقة ما جاء به موسى من عند ربه، قالوا لموسى: ما هذا الذي جئتنا به إلا سحر افتريته وتخرّصته كذبا وباطلا، (وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا) الذي تدعونا إلى عبادته في أسلافنا وآبائنا الذين مضوا قبلنا[35]، ولا يخلو كلامهم هذا من أن يكونوا كاذبين فيما قالوا، إذ يحتمل أنهم سمعوا وعلموا بنحوه، ولكنهم حُجوا وبهتوا، وما وجدوا ما يدفعون به ما جاءهم من الآيات، إلا قولهم هذا سحر وبدعة لم يسمعوا بمثلها[36].

فهي إذن المماراة في الحق الواضح الذي لا يمكن دفعه، حيثما واجه الحق الباطل فأعيا الباطل الجواب، إنهم يدعون أنه سحر، ولا يجدون لهم حجة إلا أنه جديد عليهم، لم يسمعوا به في آبائهم الأولين، وهم لا يناقشون بحجة، ولا يدلون ببرهان، إنما يلقون بهذا القول الغامض الذي لا يحق حقا ولا يبطل باطلا ولا يدفع دعوى، وأما موسى (عليه السلام) فيحيل الأمر بينه وبينهم

إلى الله، فما أدلوا بحجة ليناقشها، ولا طلبوا دليلا فيعطيهم، فالاختصار أولى والإعراض أكرم، وترك الأمر بينه وبينهم إلى الله[37]: ﴿رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [القصص: 37].

- **مُحاجَّة قوم محمد (ﷺ) بنفي السماع من آبائهم:**

قال تعالى: ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡۖ وَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٞ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ [ص: 4 – 7]، وعجبوا أن جاءهم بشر مثلهم أو أمي من عدادهم، (وقال الكافرون) وضع فيه الظاهر موضع الضمير غضبا عليهم وذما لهم، وإشعارا بأن كفرهم جسَّرهم على هذا القول، (هذا ساحر) فيما يظهره معجزة، (كذاب) فيما يقوله على الله تعالى، ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عُجَابٞ﴾ [ص: 5] بليغ في العُجب، فإنه خلاف ما أطبق عليه آباؤنا، وما نشاهده من أن الواحد لا يفي علمه وقدرته بالأشياء الكثيرة، وقرئ مشددا (عُجَّاب) ككُبَّار وهو أبلغ[38].

وانطلق أشراف قريش من مجلس أبي طالب بعد ما بكتهم رسول الله (ﷺ)[39]، قائلين بعضهم لبعض امشوا واصبروا واثبتوا على عبادة آلهتكم فلا ينفعكم مكالمته، وقيل المراد بالانطلاق الاندفاع في القول، ثم قالوا: إن هذا الأمر لشيء من ريب الزمان يراد بنا فلا مرد له، أو أن هذا الذي يدعيه من التوحيد أو يقصده من الرئاسة، والترفع على العرب والعجم؛ لشيء يتمنى أو يريده كل أحد، أو أن دينكم لشيء يطلب ليؤخذ منكم، (ما سمعنا بهذا) بالذي يقوله، (في الملة الآخرة) في الملة التي أدركنا عليها آباءنا، (إن هذا إلا اختلاق) كذب اختلقه[40].

وذكر المفسرون في معنى (الملة الآخرة) ثلاثة معان:

أحدها: أنها مِلَّة قريش، والثاني: النصرانية، والثالث: اليهودية والنصرانية، والمعنى أن اليهود أشركت بعُزَير، والنصارى قالت: ثالث ثلاثة، فلهذا أنْكَرَتِ التوحيدَ[41]، فهم جميعا لا يقولون بإله واحد، والأقرب أنها ملة قريش إذ هم لا يؤمنون إلا بدين آبائهم وأجدادهم، ثم إن المعهود من حالهم في المحاجة أن يقدموا ما كان عليه سلفهم وأشرافهم والله أعلم.

ثم قال تعالى: ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾ [ص: 6]، فليس هو الدين، وليست هي العقيدة، إنما هو شيء آخر يراد من وراء هذه الدعوة، شيء ينبغي أن تدعه الجماهير لأربابه، ولمن يحسنون فهم المخبآت وإدراك المناورات، وتنصرف هي إلى عادتها الموروثة، وآلهتها المعروفة، فلتطمئن الجماهير، فالكبراء ساهرون على مصالحهم وعقائدهم وآلهتهم[42].

- **وتشترك القصص الثلاث السابقة في الآتي:**

أولا: الاحتجاج بنفي السماع، فهم لم يسمعوا عن التوحيد الذي جاء به الرسل لأنه ينافي ما سار عليه آباؤهم، وليس لهم استعداد لترك ما هم عليه، ولعل هذه هي السمة الأبرز في معركة التوحيد بين الحق والباطل، حيث رد قوم نوح (عليه السلام) فقالوا: ﴿لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾ [نوح: 23]، وقال فرعون: ﴿مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ [القصص: 38] ردا على دعوة موسى بالتوحيد، وردت قريش على محمد (ﷺ): ﴿أَجَعَلَ ٱلۡأٓلِهَةَ إِلَٰهٗا وَٰحِدًاۖ﴾ [ص: 5].

ثانيا: ادعوا بأن الرسل إنما جاؤوا لأجل مصلحة دنيوية ومنفعة خاصة، فقالوا عن نوح: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ [المؤمنون: 24]، وقولوا عن موسى وهارون: ﴿وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلۡكِبۡرِيَآءُ﴾ [يونس: 78]، وقالوا عن سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ [ص: 8]، وقد جاء الرد على تنكرهم مفحما، قال تعالى: ﴿أَهُمۡ يَقۡسِمُونَ رَحۡمَتَ رَبِّكَۚ نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ﴾ [الزُّخرُف: 32].

ثالثا: اتهموا رسلهم بخروجهم عن المألوف، فرموا نوحا بالجنون فقالوا: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: 25]، وقالوا عما جاء به موسى: ﴿سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ [القصص: 36]، وقالوا عن محمد (ﷺ): ﴿سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: 4].

رابعا: أن الرسل الثلاثة نوح وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام من أولي العزم، وقد عاقب الله الذين أنكروا دعوة نوح بالغرق، ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝١١٩ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الشعراء: 119، 120]، كما عاقب فرعون وجنوده بالغرق، ﴿وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ۝٦٥ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ [الشعراء: 66]، وقد هدد الله قريشا ومن تبعها من العرب بالغرق، فلو لا أنهم آمنوا لأغرقهم: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: 65] ، إشارة إلى طوفان نوح[43]، فناسبت العقوبة بالغرق لِما أغرقوا فيه أنفسهم من الباطل والافتراء على الله وعلى رسله.

ثالثا: الاحتجاج بما وُجد عليه الآباء

- **المحاجة بما وُجد عليه الآباء لدفع حجج إبراهيم (عليه السلام):**

كان إبراهيم مضرب المثل في مقاومة الشرك؛ إذ قاومهم بالحجة والقوة وإعلان التوحيد[44]، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ۝٥١ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ۝٥٢ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ﴾ [الأنبياء: 51 –53]، ومن كمال رشد إبراهيم محاورته لقومه، بأسلوب متفرد حيث وجه إليهم استفهاما يتعجب من صنيعهم، فصيغ بقالب المستعلم وفي ثناياه حطٌّ لما يعتقدون تعظيمه، وهو بذلك يُسخف هذا التعلق ويبشعه بتصويرهم منكبين على هذه التماثيل، وكل ذلك تمهيدا لتخطئتهم بعد أن يسمع جوابهم[45].

فما استروحوا في الجواب إلا إلى التقليد، فما كان جواب إبراهيم إلا أن حكم بالتسوية بينهم وبين آبائهم في الضلال، والحجة المتوجهة على سلفهم لزموها وتوجهت عليهم، ﴿قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنبياء: 54]، ولم يرضوا منه بتخطئة آبائهم حتى قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ﴾ [الأنبياء: 55]، فطالبوه بالبرهان إلى ما دعاهم إليه، وهم أحوج ما يكون إلى النظر والاستدلال[46].

إن الجواب بالتقليد هو العصا التي يتوكأ عليها كل عاجز، والحبل الذي يتشبث به كل غريق، ليس لهم حجة سوى تقليد الآباء والمشي على طريقتهم[47]، إن الاحتجاج بالآباء يدل على التحجر العقلي والنفسي داخل قوالب التقليد الميتة، في مقابل حرية الإيمان، وتقويم الأشياء بقيمها الحقيقية لا التقليدية، وما كانت عبادة الآباء لتكسب هذه التماثيل قيمة ليست لها، ولا لتخلع عليها قداسة لا تستحقها، فالقيم لا تنبع من تقليد الآباء وتقديسهم، وإنما تنبع من التقويم المتحرر الطليق[48]، والبحث عن الحقيقة من غير هوى ولا تعصب.

- **المحاجة بما وُجد عليه الآباء وأنه عين المشيئة:**

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝٢٠ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ۝٢١ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزُّخرُف: 20 –22]، مفهوم المخالفة إنما نعبدهم لأن الله شاء ذلك ورضي لنا، ولم يعاقبنا على عبادتهم، أي: الأوثان، وقيل الملائكة، فرد عليهم سبحانه: (مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ)، فيما يقولون إن هي إلا تخمينات وتخرص وكذب، أم آتيناهم كتابا من قبله، أي من قبل القرآن بأن يعبدوا غير الله، فهم به مستمسكون، (بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ) على دين وملة، قال مجاهد: أي على إمام، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾، أغنياؤها ورؤساؤها، ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزُّخرُف: 23][49]، فهي ذات الحجة يكررها المبطلون في كل زمان ومكان.

ثم تكرر في آية أخرى أنهم ما أشركوا إلا برضاه، قال عز وجل: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنعام: 148، 149]، وفي الآية تركيز أكثر على المشيئة، وأن ما احتجوا بيّن بطلانه، إذ ليس ما ذكروه بحجة، ثم إن هذا الاستدلال مبنى على جهلهم وعدم تفريقهم بين المشيئة بمعنى الإرادة وبين الرضا، فإن إرادته تعالى متعلقة بالخير والشر، ما شاء الله كان وما لم يشأ لا يكون، وأنه تعالى لا يرضى لعباده الكفر، ولكنه جري على احتجاجهم بالآباء بغير علم[50].

وجاء الرد على زعمهم بأن الله رضي لهم بالشرك في قوله عزو جل: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۛ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ١٧٢ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [الأعراف: 173]، فقطع الحق سبحانه وتعالى عليهم كل عذر، فلا يمكنهم الاحتجاج بالآباء ولا بالغفلة؛ إذ قامت عليهم الحجة بإخبار الرسل في الدنيا، ومن نقض العهد كان معاندا ولزمته الحجة، والحجة لا تسقط بالنسيان بعد إخبار الرسل[51].

- **المحاجة بما وُجد عليه الآباء لتبرير المعاصي:**

بلغ المشركون في حجاجهم لرسول الله (ﷺ) درجة الانحطاط، حتى أنهم تجرؤوا على الله فنسبوا إليه ما لا يجوز عقلا ولا شرعا، كل ذلك تقديسا وتعظيما لعادات ومآثر آبائهم، ولكي يُضْفوا على تلك العادات صفة القداسة نسبوها إلى الله بهتانا وزورا، فقال سبحانه وتعالى نافيا عن نفسه ذلك: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [المائدة: 104][52].

وإذا قيل لهؤلاء الذين يبحرون البحائر ويسيّبون السوائب[53]، تعالوا إلى تنزيل الله وآي كتابه وإلى رسوله، ليتبين لكم كذبُ قيلكم فيم تضيفونه إلى الله تعالى ذكره، من تحريمكم ما تحرّمونه، (قالوا: حسبنا ما وجدنا عليه من قبلنا)، فنحن لهم تبع وهم لنا أئمة وقادة، وقد اكتفينا بما أخذنا عنهم، ورضينا بما كانوا عليه من تحريم وتحليل[54]، والواو في قوله: (أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ) واو الحال قد دخلت عليها همزة الإنكار، وتقديره: أحسبهم ذلك ولو كان آباؤهم لا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ، والمعنى أنّ الاقتداء إنما يصح بالعالم المهتدى، وإنما يُعرف اهتداؤه بالحجة[55]، واحتجاجهم بالآباء بيان لقصور عقولهم، وانهماكهم في التقليد، وأن لا سند لهم سواه[56].

وقد وصل بهم الأمر إلى تبرير سوء فعالهم بما هو أبشع من ذلك، متجاوزين الأدب مع الله سبحانه وتعالى، قال عز وجل مخبرا عن ذلك: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: 28]، وقبل هذه الآية حذر القرآن من فتنة الشيطان الذي جعل تقليد الآباء والسير على خطاهم دين يتبع، فقال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: 27].

فالفاحشة: هي المبالغة في الذنوب إلى درجة القبح، وقال أكثر المفسرين: هي طواف المشركين بالبيت عراة[57]، وقيل: هي الشرك، والظاهر أنها تصدق على ما هو أعم من الأمرين جميعا[58]، ثم إنهم برروا قبح أفعالهم بعذرين لا يقلان قبحا عن فحش معاصيهم: "الأول: أنهم فعلوا ذلك اقتداء بآبائهم، والثاني: أنهم مأمورون بذلك من جهة الله سبحانه، وكلا العذرين في غاية البطلان والفساد، لأن وجود آبائهم على القبح لا يسوغ لهم فعله"[59]، "فأعرض [القرآن] عن الأول لظهور فساده،

ورد الثاني بقوله: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾؛ لأن الله تعالى جرت عادته على الأمر بمحاسن الأفعال والحث على مكارم الخصال"[60]، وما تبريركم هذا إلا تقول على الله ودليل على جهلكم، ولا أدل على ذلك من تقديمهم الاحتجاج بالآباء على الاحتجاج بأمر الله لهم رغم بطلانه، تقديم يشيء بمدى تقديسهم لتقليد الآباء، ومدى بعدهم عن الله جل في علاه.

ويبدو لي أن الدافع للاحتجاج والتمسك بما وجدوا عليه آباءهم هو تعظيمهم لآبائهم، وكذلك لاعتقادهم أن الآباء لا يمارسون شيئا من تلقاء أنفسهم، وأن طريقتهم في نظرهم هذه مرضي عنها من قبل الله، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا.

المبحث الثاني

أسباب الاحتجاج بالآباء وآثاره على المجتمع

المطلب الأول: أسباب الاحتجاج بالآباء

أولا: إتباع الشيطان

إن منافذ الإغواء تأتي مرة من النفس، ومرة من الشيطان، وبهما يُطمس نور الإيمان ونور المنهج في نفس المؤمن، فالشيطان يريدك عاصيًا على أيّ وجه كان، وأما النفس فتريد معصية بعينها تقف عندها لا تتحول عنها[61]، ومما يلقيه الشيطان ويسوس به الشبهات، ومن هذا الباب دخل الشيطان على المشركين، ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَٰدِلُوكُمۡۖ﴾ [الأنعام: 121]، فكان اتباع الشيطان سببا للجدل والمحاجة[62].

وقد بين سبحانه وتعالى أن الشيطان نصب نفسه داعية إلى دين الآباء والأجداد، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٢٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [لقمان: 20، 21]، والمعنى أن منهم من يجادلون بغير علم، إذ لم يعلمهم من يُقبل قوله، ولا عندهم هدى قلب، ولا نورُ بصيرة يُقيمِون بها حجة، ولا يتبعون بذلك كتابا يُقرُّ بأنه وحي، بل تلك دعوى شيطانية[63]، فكيف إذن "يجادل من يجادل لا بعلم آتيناه من لدنا كشفا، ولا بهدى أرسلناه إليه وحيا، ولا بكتاب يتلى عليه وعظا"[64].

وإذا قيل لهؤلاء المجادلين في توحيد الله: (ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ) على رسوله من الشرائع المطهرة، لم يكن لهم حجة إلا اتباع آبائهم، فما ظنكم أيها المحتجون بصنيع آبائهم أنهم كانوا على ضلالة، وأنتم خلف لهم فيما كانوا فيه[65]؛ لذا قال على طريق الاستفهام للاستبعاد والتبكيت: (أَوَلَوۡ كَانَ ٱلشَّيۡطَٰنُ يَدۡعُوهُمۡ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ) أي: يدعو الشيطان آباءهم الذين اقتدوا بهم إلى الشرك، ويجوز أن يراد أنه يدعو هؤلاء الأتباع إلى عذاب السعير، لأنه زين لهم اتباع آبائهم، والتدين بدينهم، ويجوز أن يراد أن يدعو جميع التابعين والمتبوعين إلى العذاب، فدعاؤه للمتبوعين: بتزيينه لهم الشرك، ودعاؤه للتابعين: بتزيينه لهم دين آبائهم[66].

وفي الآية بيان أن مجادلتهم مع كونها من غير علم فهي في غاية القبح، لأن الأنبياء عليهم السلام يدعونهم إلى كلام الله، وهم يأخذون بكلام آبائهم، وكيف يترك القول ويتبع الفعل، والقول أدل من الفعل[67]، وقد دخل إبليس على هذه الأمة في عقائدها من باب التقليد للآباء والأسلاف، فزين للمقلدين أن الأدلة قد تشتبه، والصواب قد يخفى، والتقليد سليم، وقد ضل في هذا الطريق خلق كثير، وبه هلاك عامة الناس[68].

ثانيا: تعطيل العقل

أخبر سبحانه أن من دواعي الاحتجاج بالآباء تعطيل العقل، قال عز وجل: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: 170]، فالضمير في (لَهُمُ) أي: للناس، وقيل: هم المشركون، وقيل: هم طائفة من اليهود، وعدل بالخطاب عنهم على طريقة الالتفات للنداء على ضلالهم؛ لأنه لا ضال أضل من المقلد،

فقالوا: (بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ) فإنهم كانوا خيرا منا وأعلم، وألفينا: بمعنى وجدنا، (أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ) الواو للحال، والهمزة بمعنى الردّ والتعجيب، والمعنى: أيتبعونهم ولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا من الدين ولا يهتدون للصواب[69].

ثم قال عز وجل: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: 171]، أي مثلهم في اتباعهم آباءهم وتقليدهم لهم، كمثل البهائم التي لا تسمع إلا ظاهر الصوت ولا تفهم ما تحته، فكذلك هؤلاء يتبعونهم على ظاهر حالهم، ولا يفقهون أهم على حق أم على باطل[70].

وإنما يَتّبع المتبعُ ذا المعرفة بالشيء العالم بها، وأما الجاهل فلا يتبعه في جهله إلا من لا عقل له ولا تمييز[71]، و"إنما ذكر تعالى هذه الآية عقيب الزجر عن اتباع خطوات الشيطان، تنبيها على أنه لا فرق بين متابعة وساوس الشيطان، وبين متابعة التقليد، وفيه أقوى دليل على وجوب النظر والاستدلال، وترك التعويل على ما يقع في الخاطر من غير دليل، أو على ما يقوله الغير من غير دليل"[72]، "وفي التقليد إبطال منفعة العقل؛ لأنه إنما خُلق للتأمل والتدبر، وقبيح بمن أعطي شمعة يستضيء بها، أن يطفئها ويمشي في الظلمة"[73].

ثالثا: التخرّص

قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ ٢٠ أَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُمۡ كِتَٰبٗا مِّن قَبۡلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسۡتَمۡسِكُونَ ٢١ بَلۡ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهۡتَدُونَ﴾ [الزُخرُف: 20 –22]، فالخرص: الظن الناشئ عن وجدان في النفس مستند إلى تقريب، ولا يستند إلى دليل يشترك العقلاء فيه، وهو يرادف: الحزر، والتخمين، وإطلاق الخرص على ظنونهم الباطلة في غاية الرشاقة؛ لأنها ظنون أن لا دليل عليها غير ما حسن لظانيها، ومن المفسرين من فسر الخرص بالكذب، والأول ارجح لأن الخرص ما كان بغير علم، قال تعالى: (مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ)، ولو أريد وصفهم بالكذب لكان لفظ (يكذبون) أصرح من لفظ يخرصون، واعلم أن السياق اقتضى ذم الاستدلال بالخرص، لأنه حزر وتخمين لا ينضبط[74].

وقد ذكر الله تعالى احتجاج الكفار ليبين فساد منزعهم، وذلك أنهم جعلوا إمهال الله لهم وإنعامه عليهم وهم يعبدون الأصنام، دليلا على أنه يرضى عبادة الأصنام دينا، وأن ذلك كالأمر به، فنفى الله عن الكفرة أن يكون لهم علم بهذا، وليس عندهم كتاب منزل يقتضي ذلك[75]، ولا حجة لهم على ذلك عقلية ولا نقلية، وإنما جنحوا فيه إلى تقليد آبائهم الجهلة تخرصا، ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ﴾ [الزُخرُف: 23] وفي الآية دلالة على أن التقليد في نحو ذلك ضلال قديم، وأن مقدميهم أيضا لم يكن لهم سند منظور إليه، وإنما هي ظنون وتخمينات، وتخصيص القول بالمترفين إشعار بأن التنعم وحب البطالة صرفهم عن النظر إلى التقليد[76].

رابعا: الاغترار بالكثرة

إن من أسباب الإخفاق الإعجاب والاغترار بالكثرة، يقول سبحانه: ﴿وَيَوۡمَ حُنَيۡنٍ إِذۡ أَعۡجَبَتۡكُمۡ كَثۡرَتُكُمۡ فَلَمۡ تُغۡنِ عَنكُمۡ شَيۡـٔٗا﴾ [التوبة: 25]؛ ثم بين سبحانه أن أكثر من في الأرض طبعوا على الكفر، فلا ينبغي السير على طريقهم ولا الاغترار بكثرتهم، ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: 116].

ولما وقف النبي (ﷺ) داعيا أهل الكفر إلى دين الحق، ثقل عليهم أن يأتي شخص واحد ويهدم مآثر الآباء والأجداد، فصور القرآن ذلك المشهد قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٞ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمۡ عَمَّا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُكُمۡ﴾ [سبأ: 43] ؛ فقالوا بتبجح ما هذا إلا رجل واحد، ثم اعتقدوا أن ترك ملة آبائهم مع كثرتهم قبيح، لَا يحل ولا يجوز، وهم بهذا القول يستثيرون حمية الجاهلية، بالحرص على موروثات الآباء، وما خلّفوا لهم من عادات وتقاليد، ومراسم[77].

ثم ختم الآية: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾ [سبأ: **43**]، (قال) لمخاطبة المفرد ولم يقل: وقالوا بالجمع تحقيرا لأمرهم وجرأتهم على الله، وإشارة إلى أن الكثرة لا قيمة لها ولا وزن، وفي تكرار اللامين (لِلۡحَقِّ لَمَّا) إشارة إلى القائلين (الكفار) والمقول فيه (القرآن الكريم)، وفي (لما) من المبادهة بالكفر: دليل على صدور الكلام عن إنكارٍ عظيمٍ وغضبٍ شديد، وتَعْجِيبٌ من أمرهم بليغ، كأنه قال: وقال أولئك الكفرة المتمرّدون بجراءتهم على الله، ومكابرتهم لمثل ذلك الحق النير قبل أن يذوقوه: (إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ)، فبتوا القضاء على أنه سحر، ثم بتوه على أنه بين ظاهر كل عاقل تأمّله سماه سحرا[78]، "فهي سلسلة من الاتهامات، حلقة بعد حلقة، يواجهون بها الآيات البينات كي يحولوا بينها وبين القلوب، ولا دليل لهم على دعواهم، ولكنها جملة من الأكاذيب لتضليل العامة والجماهير"[79]، ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [يونس: **36**]، ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: **103**].

المطلب الثاني: آثار الاحتجاج بالآباء على المجتمع

أولا: انتشار البدع والضلالات

ساهم تقليد الآباء بطريقة مباشر في انتشار البدع والخرافات قديما وحديثا[80]، والمتأمل في الآيات التي تحدثت عن احتجاج المقلدين بآبائهم يرى ذلك جليا، وقد لخصت آية من كتاب الله ذلك وبينت ما هم عليه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةٗ قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: **28**]، وهذه الآية تلخص البدع التي انتشرت في تلك الفترة، وتظهر أيضا شناعتها وبشاعتها، كطوافهم بالبيت عراة، وقد فصلت آية أخرى بعض تلك البدع، منها قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ [المائدة: **103**]، ومن هنا يظهر مدى إسهام تقليد الآباء والاحتجاج بهم في انتشار البدع والضلالات.

وقد كشفت سورة الأنعام أنواعا من البدع والضلالات، التي ورثها العرب عن آبائهم، وفيها تشهير بعنصرية المشركين وخروجهم عن المعقول، ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنۡعَٰمٞ وَحَرۡثٌ حِجۡرٞ لَّا يَطۡعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعۡمِهِمۡ وَأَنۡعَٰمٌ حُرِّمَتۡ ظُهُورُهَا وَأَنۡعَٰمٞ لَّا يَذۡكُرُونَ ٱسۡمَ ٱللَّهِ عَلَيۡهَا ٱفۡتِرَآءً عَلَيۡهِۚ سَيَجۡزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفۡتَرُونَ﴾ [الأنعام: **138**]، فطعامهم إذن مخصوص بفئة دون أخرى، وتظهر عنصريتهم وذكوريتهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ خَالِصَةٞ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيۡتَةٗ فَهُمۡ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجۡزِيهِمۡ وَصۡفَهُمۡۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنعام: **139**]، يَحْرِمون على المرأة أن تشاركهم أكل صنف من الأنعام، ثم إن كان هذا الصنف ميتة شاركوها في أكله، وهم بذلك قد جمعوا بين البدعة وسوء القسمة.

لم تتوقف بدعهم وضلالتهم على التعري وتعطيل الانتفاع بالأنعام، بل تعدته إلى قتل أولادهم، ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ قَتۡلَ أَوۡلَٰدِهِمۡ شُرَكَآؤُهُمۡ لِيُرۡدُوهُمۡ وَلِيَلۡبِسُواْ عَلَيۡهِمۡ دِينَهُمۡۖ﴾ [الأنعام: **137**] يقول ابن عاشور: " ولا شك أن الوأد طريقة سنها أئمة الشرك لقومهم، إذ لم يكونوا يصدرون إلا عن رأيهم، فهي ضلالة ابتدعوها لقومهم، بعلة التخلص من عوائق غزوهم أعداءهم، ومن معرة الفاقة والسباء، وربما كان سدنة الأصنام يحرضونهم على إنجاز أمر الموءودة إذا رأوا من بعضهم تثاقلا"[81].

قال ابن عباس، رضي الله عنهما: إذا سرك أن تعلم جهل العرب فاقرأ ما فوق الثلاثين والمائة من سورة الأنعام، إلى قوله تعالى: ﴿قَدۡ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوۡلَٰدَهُمۡ سَفَهَۢا بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفۡتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدۡ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾ [الأنعام: **140**][82]، وكل تلك الآيات تكشف بدعهم وضلالاتهم؛ لذلك عقب الله عليهم بقوله: ﴿قَدۡ خَسِرَ﴾ تحقيقا لخسرانهم، أي "قد خسر الذين فعلوا هذه الأفعال في الدنيا والآخرة، أما في الدنيا فخسروا أولادهم بقتلهم، وضيقوا عليهم في أموالهم، فحرموا أشياء ابتدعوها من تلقاء أنفسهم، وأما في الآخرة

فيصيرون إلى شر المنازل بكذبهم على الله وافترائهم"[83]، ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ٦٩ مَتَٰعٌ فِي ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: 70].

وكل "هذه أحكام ابتدعوها، فردّهم الحقّ– سبحانه– عن الابتداع، وأمرهم بحسن الاتّباع، وأخبر أنّ ما صدر من عاداتهم لا يعدّ من جملة عباداتهم"[84]، "والاشارة فيه أن من نحا نحوهم في زيادة شيء في الدين، أو نقصان شيء من شرع المسلمين فمضاهٍ لهم في البطلان، ينخرط في سلكهم"[85]، فيتبين أن القضية هي قضية هذا الدين كما هي قضية هذه العقيدة[86].

ثانيا: تجهيل المجتمع

إن سياسة التجهيل ليست وليدة اللحظة، بل هي سياسة قديمة اعتمدها المجتمع الجاهلي، ولا زال صداها ساري المفعول حتى يومنا هذا، ومن أنجح الطرق والوسائل لتجهيل المجتمع هي المناداة بالسير على خطى الآباء الأجداد، وتجريم كل من يخالف تلك العادات والتقليد، وما كان ذلك ليتسنى لهم لولا أنهم غيبوا العقل وعطلوه، فكان الأثر السلبي الذي أرادوه وهو تجهيل المجتمع.

فهو تجهيل متعمد وليس جهلا عارضا، وقد أشار القرآن لذلك في أكثر من موضع، منها قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ [الأحزاب: 67]، وفي الآية زجر عن التقليد[87]، ولولا التجهيل الذي يفرضه عليهم التقليد لما أطاعوا قادتهم وزعماءهم طاعة عمياء، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: 43]، إن ترك الحجج والبينات والانصراف إلى الاحتجاج بالآباء، هو عين التجهيل للمجتمع، والتعمية بدعوى التمسك بمآثر الآباء وعاداتهم، حتى أغلقوا على عقولهم في خزائن الجدات.

وقد أشار القرآن الكريم إلى استغلال التجهيل لتحقيق مصالح مادية، ترجع بالنفع على السدنة والكهنة، وهذا ما توضحه الآيتان في سورة الأنعام: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ١٣٦ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: 136، 137]، فما كان لله يأخذه الشركاء ولا يصل، وما كان لشركائهم يصل إلى شركائهم أيضا ولا يصل إلى الله، فكله يصل إلى الشركاء، وما ذكرهم لله إلا من باب التلبيس على الجمهور، والريع والنفع يعود إلى السادة والزعماء.

ثالثا: انقسام المجتمع

يهدد تقليد الآباء السلم الاجتماعي، حيث يعصف بالأمة فلا يقبل طرف من طرف، إذ يتمسك كل فصيل بتقاليده وأعرافه، وينزلون آراءهم منزلة الثوابت والمسلمات، يعادون ويوالون من أجلها، منذ نوح والبشرية تحن إلى تقليد الآباء، ولو كان في ذلك تفكيك للأسرة والمجتمع، قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [إبراهيم: 13]، وكذلك فعلوا مع نبينا عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30]، لمجرد أنه خالف ما كان عليه آباؤهم أصدروا مرسوما بقتله أو بنفيه، ولم تشفع له صلة القرابة ولا الرحم، فماذا أبقى هؤلاء من العادات والأعراف التي يتمسحون بها، وقد أفصح القرآن عما في قلوبهم من غل فقال: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِى مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: 10]، أي لا يعيرون اهتماما لصلة القربة ولا للرحم[88].

وبالرغم مما يظهره المقلدون من تماسك إلا أنهم في غاية التمزق والفرقة، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُواْ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ۝٣١ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [الروم: 32]، أي فرقا تشايع كل فرقة إمامها الذي أضل دينها[89]، "وهذه حالة ذميمة من أحوال أهل الشرك، يراد تحذير المسلمين من الوقوع في مثلها، فإذا اختلفوا في أمور الدين الاختلاف الذي يقتضيه اختلاف الاجتهاد، أو اختلفوا في الآراء والسياسات لاختلاف العوائد، فليحذروا أن يجرهم ذلك الاختلاف إلى أن يكونوا شيعا متعادين متفرقين، يلعن بعضهم بعضا، ويذيق بعضهم بأس بعض"[90].

وقد أخبر الله عز وجل في محكم كتابه عن أمة من الأمم كانت على ملة واحدة، ثم حصل لها التفرق والتشرذم، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: 53]، فالإشارة إلى الأمة بـ(هذه) تنزيل للغائب (أمة إبراهيم) بصورة المخاطب (أمة محمد) لاتحاد الصورة، فالذي حصل في الماضي هو عين ما يحصل لحظة الخطاب[91]، وغرض الالتفات هو إبقاء المشهد حيا معاشا في ذهن المتلقي، وصلاحية الاستدلال به في الحالين، وهذا الذي ذكر في الآية مثالا لقريش، وما وصل إليه حالهم بعد أن كان أسلافهم على أمة واحدة، وهي ملة إبراهيم (ﷺ)[92]، فمزقوا النسيج الاجتماعي والديني، وصاروا جماعات وأحزاب متناحرة، وكل يحسب نفسه على شيء، وما هو إلا التمسك بالسراب.

المبحث الثالث

علاج الاحتجاج الآباء

المطلب الأول: العلاج على مستوى الأفراد

أولا: التحصن بالعلم

إن أول آية نزلت على نبينا (ﷺ) هي (اقراء)، وقد امتدح القرآن الكريم العلم في أكثر من موضع، وقرن الخشية بالعلماء فقال: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٞ﴾ [فاطر: 28]، وقد نص القرآن على أن الاحتجاج لا بد أن يكون عن علم، ولا يكون عن جهل، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ۝٦٥ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [آل عمران: 65، 66]، و"هذا إنكار على من يحاج فيما لا علم له به"[93]، وهو إنكار على **وجه العموم**.

كما أنكر الاحتجاج بالآباء بغير علم على **وجه الخصوص**، في أكثر من موضع في القران الكريم، منها قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ ۝٢٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ [لقمان: 21]، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ﴾ [المائدة: 104]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ۝٢٤ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ ٱئۡتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: 24، 25]، وغيرها من الآيات[94].

ومن هنا يتبين أن علاج الاحتجاج بالآباء وتقليدهم هو تحصيل العلم والمعرفة، فبهما يتم تحصين المجتمع من الجهل والخرافات، وقد بين القرآن الكريم أن هذا هو العلاج الفعال، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤۡتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادٗا لِّي مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾ [آل عمران: 79]، فإن حصول العلم للإنسان والدراسة ينتج عنهما الربانية، التي هي التعليم للعلم وقوة التمسك بطاعة الله[95].

ثانيا: إعمال العقل

دعا الله سبحانه وتعالى إلى إعمال العقل والتفكر؛ بالنظر إلى آياته المبثوثة في أرجاء الكون، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النحل: **12**]، ثم إن الحكمة التي من أجلها نزل القرآن عربيا هي إعمال العقل(96)؛ وذلك لفهم أسراره ومعرفة خباياه، قال تعالى: ﴿الٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ ۝١ إِنَّآ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: **2**]، فالتعقل إذن مطلوب للوصول إلى حقيقة الوحدانية.

وقد ضرب الله مثلا عن أهل التقليد وما كانوا عليه، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلۡعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتۡ بَيۡتٗاۖ وَإِنَّ أَوۡهَنَ ٱلۡبُيُوتِ لَبَيۡتُ ٱلۡعَنكَبُوتِۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [العنكبوت: **41**]، تصف الآية هشاشة وضعف ما يتمسكون به من أصنام وعادات وتقاليد ورثوها عن آبائهم(97)، وأن الحقيقة المطلقة هي وحدانية الله، وكل ما سوى ذلك من الدعوات المتشابكة، ليست سوى خيوط واهنة تنقطع عند أول هبت ريح(98)، فكل "من اعتمد على غير الله عزّ وجلّ في أسباب الدنيا والآخرة، فهو منقطع عن مراده غير واصل إليه"(99).

إن بين إعمال العقل والتقليد تباين، وعلى العكس فبين التقليد وتعطيل العقل ارتباط وثيق، وقد تقدم ذكر الآيات التي تبين ذلك الارتباط(100)، ويتضح من خلالها أن من أدواء الاحتجاج بالآباء تعطيل العقل، ولا علاج له إلا بتحرير العقل وإعماله، ولا قيمة للعلم دون إعمال العقل، وقد جاء بعد آية العنكبوت المتقدمة قوله تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: **43**]، "فالعالم من عقل عن الله، فعمل بطاعته، واجتنب سخطه"(101).

المطلب الثاني: العلاج على مستوى الجماعات

أولا: نشر الوعي في المجتمع

إن نشر الوعي والفكر هما أول ما بدأ بهما رسول الله ﷺ دعوته، واستمر ذلك لأكثر من عقد من الزمان، حرص فيه على هدم الوثنية الراسخة في عقولهم، وبين لهم أنها ليست سوى عادات وتقليد ورثوها لا تمت إلى الحقيقة بصلة، وقد عرض القرآن لتوعية الأمة من الهلاك في زيغ التقليد والضلال في أكثر من موضع، تقدم بث تلك الآيات في ثنايا البحث، منها قوله عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ﴾ [الإسراء: **9**]، ويمكن الوقوف على بعض معالم الوعي في القرآن الكريم، من خلال القضايا الآتية:

1- مقابلة الحجة بالحجة:

رد القرآن على المعاندين حججهم وشبهم بالحجة الدامغة، والقول الفصل، فأفحم إبراهيمُ النمرودَ حين أدعى الألوهية، قال تعالى واصفا ذلك: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ إِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحۡيِۦ وَأُمِيتُۖ قَالَ إِبۡرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾ [البقرة: **258**]، كما جاء في القرآن ردا مباشرا على أرباب التقليد، قال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ۝١٤٨ قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنعام: **149**]، فطلب الحق سبحانه منهم أن يخرجوا علما على مزاعمهم، إذ كيف يحلون ويحرمون، بل ومن أين أتوا بتلك الطقوس التي يمارسونها؟ وأي شاهد على عقائدهم الفاسدة؟ ويُلاحظ أن القرآن الكريم يذكر شبه الخصم قبل أن يرد عليها، إنصافا في التعاطي مع القضايا الفاسدة، وهو درس قيم في فن المحاجة، فالتعرف على ثقافة المخالفين وما يؤمنون به واستعراضه، يعطي صورة واضحة قبل الحكم عليه.

كما عالج القرآن الكريم حججهم الفاسدة، ومن ذلك احتجاجهم بإحياء آبائهم[102]، قال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ۝٧٨ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِيٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: 79]، كما رد عليهم زعمهم بأن لله شركاء محتجين بفعل آبائهم، قال عز وجل: ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 42]، وقال: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ۝٢١ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: 22]، وكل رد من تلك الردود جاء مناسبا للحجة والشبهة التي يطرحونها، وبالطريقة التي يفهمونها، ومع ذلك كانوا يعاندون، ويخوضون فيما لا يدركون.

2- الأمر بالمعروف ومحاولة التغيير:

قال (ﷺ): «**من رأى منكم منكرا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[103]، ومن الحديث يتبين أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الإيمان، وقد أخبر القرآن أن سبب لعن بني إسرائيل، أنهم كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝٧٨ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: 78، 79]، فهي من السنن التي لا محيد عنها، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]، وإذا تجاهلت أمة هذه السنن فشلت في اجتماع أمرها، وتفرقت كلمتها، وفي الآية إشارة إلى أن المرء يبدأ بإصلاح نفسه قبل إصلاح غيره، وذلك أدعى أن يقبل منه النصح والتوجيه.

وقد حاول القرآن جاهدا تغيير المجتمع الجاهلي وما كانوا عليه من رواسب الماضي السحيق، إلا أن ثمة شوائب حالت بينهم وبين قبول الحق، ومن تلك الشوائب اتباع الشيطان والتخرص والاغترار بالكثرة، وكل ذلك أدى بهم إلى الزيغ عن الحق والركون إلى البطالة والرفاهية.

فالإسلام يستنهض الهمم لتصحيح المسار بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]، وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143]، وحتى يتشكل الوعي الجمعي للأمة، للسير وفق منهج القرآن الكريم، ولكي لا يتأثر بالتيارات الخارجة عن بوتقة تعاليم الإسلام، مهما أطلقوا من شعارات براقه كالتعايش بين الأديان والعولمة، وغيرها من الأفكار المغلوطة، ولا بد من يقظة تجاه تلك القضايا التي بدأت تتسرب إلى مجتمعاتنا بكل صمت، حتى أصبحت مقبولة لدى كثير من فئات المجتمع.

3- كشف المؤامرات والأحقاد:

ولكي يحافظ المقلدون على تقاليدهم البائدة لجؤوا إلى الدسائس والمؤامرات، قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30]، فكشف القرآن دائسهم وأحقادهم ومكرهم، وفي ذلك تنبيه للأمة بأن تأخذ حذرها، وإخبار بأن أعداء العقيدة هم أعداء الإنسانية، لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، وقد بين القرآن كيفية الوقوف في وجه أعداء الأمة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٧٢ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال: 73]، وكل ذلك إيضاح وتوعية للقوى العاملة في الدعوة بأن يؤازر بعضهم بعضا، وأن يبقوا لحمة واحدة ضد مؤامرات وأحقاد أعداء الدين، وليعرفوا الواقع السياسي لأعدائهم، وحتى لا تقع الأمة فريسة للتضليل الذي يمارسه أعداؤها.

ثانيا: الدعوة إلى السلم الاجتماعي

إن دين الإسلام هو دين المحبة والسلام، قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال: **61**] وقال: ﴿فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا﴾ [النساء: **90**]، والسلم الاجتماعي هو مبدأ من مبادئ الإسلام، قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ [البقرة: **208**]، وقد قال (ﷺ): «**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده**»[104]، والشواهد على ذلك كثيرة، وما يهمنا معرفته هو كيف يستثمر ذلك في علاج العادات والتقاليد، وذلك من خلال المبادئ التالية:

1- العدالة الاجتماعية:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: **90**] فالعدل هو الإنصاف[105]، والعدل يكون بين المرء وبين نفسه بمنعها عما فيه هلاكها، وفيما بينه وبين ربه بإيثار حقّه تعالى على حظّ نفسه، وفيما بينه وبين الخلق ببذل النصيحة وترك الخيانة[106]، و"قد جاء هذا الكتاب [القرآن] لينشئ أمة وينظم مجتمعا، ثم لينشئ عالماً ويقيم نظاماً، جاء دعوة عالمية إنسانية لا تعصب فيها لقبيلة أو أمة أو جنس، إنما العقيدة وحدها هي الآصرة والرابطة والقومية والعصبية، ومن ثم جاء بالمبادئ التي تكفل تماسك الجماعة والجماعات، واطمئنان الأفراد والأمم والشعوب، والثقة بالمعاملات والوعود والعهود.

جاء (بِالْعَدْلِ) الذي يكفل لكل فرد ولكل جماعة ولكل قوم قاعدة ثابتة للتعامل، لا تميل مع الهوى، ولا تتأثر بالود والبغض، ولا تتبدل مجاراة للصهر والنسب، والغنى والفقر، والقوة والضعف، إنما تمضي في طريقها تكيل بمكيال واحد للجميع، وتزن بميزان واحد للجميع"[107].

قال عزو جل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: **8**]، ولا يحملنكم الهوى والعصبية وبغض الناس إليكم على ترك العدل في أموركم وشؤونكم، بل الزموا العدل على أي حال[108]، لقد نهى الله الذين آمنوا من قبل أن يحملهم الشنآن لمن صدوهم عن المسجد الحرام على الاعتداء، وكانت هذه قمة في ضبط النفس والسماحة، يرفعهم الله إليها بمنهجه التربوي الرباني القويم، فها هم أولاء يُنهون أن يحملهم الشنآن على أن يميلوا عن العدل، وهي قمة أعلى مرتقى وأصعب على النفس وأشق، فهي مرحلة وراء عدم الاعتداء والوقوف عنده، بل تتجاوزه إلى إقامة العدل مع الشعور بالكره والبغض[109]، وهذه هي قمة العدالة الاجتماعية، في إنصاف العدوى والصديق على حد سواء.

2- المجادلة بالتي هي أحسن:

وحرصا على السلم بين فئات المجتمع المختلفة، رتب الشرع بعض القواعد في فن التعامل مع المخالفين، ومن تلك القواعد (المجادلة بالتي هي أحسن)، وهي تنبذ كل ما يفرق ولا يجمع، حتى على مستوى الأديان المختلفة، فإن المقصد من المحاجة والمجادلة إظهار الحق، لا الاستظهار والاستنقاص من الآخرين، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ [العنكبوت: **46**]، فنهى سبحانه تعالى عن مجادلة أهل الكتاب، إذا كانت من غير بصيرة، أو بغير قاعدة مرضية، وأن لا يجادلوا إلا بالتي هي أحسن، بحسن خلق ولطف ولين كلام، ودعوة إلى الحق وتحسينه، ورد عن الباطل وتهجينه، بأقرب طريق موصل لذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المجادلة والمغالبة وحب العلو، بل يكون القصد بيان الحق وهداية الخلق، إلا من ظلم من أهل الكتاب، بأن ظهر من قصده وحاله، أنه لا إرادة له في الحق، وإنما يجادل على وجه المشاغبة والمغالبة، فهذا لا فائدة في جداله، لأن المقصود منها ضائع[110].

فالمقصود من المجادلة هو إظهار الحق، "هذه هي الحقيقة الضخمة العظيمة الرفيعة التي يقوم عليها الإسلام، والتي تقررها هذه الآية من القرآن، هذه الحقيقة التي ترفع العلاقات بين البشر، عن أن تكون مجرد علاقة دم أو نسب، أو جنس، أو وطن، أو تبادل أو تجارة، ترفعها عن هذا كله لتصلها بالله، ممثلة في عقيدة واحدة تذوب فيها الأجناس والألوان، وتختفي فيها القوميات والأوطان، ويتلاشى فيها الزمان والمكان، ولا تبقى إلا العروة الوثقى في الخالق الديان"[111]، ولذلك يقول سبحانه: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [النحل: **125**]، وكذلك أمر الله موسى وهارون عليهما السلام أن يجادلا فرعون مع جبروته، فقال عز وجل: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوۡلٗا لَّيِّنٗا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوۡ يَخۡشَىٰ﴾ [طه: **44**]، فالهدف الأسمى من هذه الدعوة هي إيصال البشرية إلى خالقها، وكما قال ربعي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد: "إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام"[112]، ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدۡعُۖ وَٱسۡتَقِمۡ كَمَآ أُمِرۡتَۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡۖ وَقُلۡ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٖۖ وَأُمِرۡتُ لِأَعۡدِلَ بَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡۖ لَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡۖ لَا حُجَّةَ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُۖ ٱللَّهُ يَجۡمَعُ بَيۡنَنَاۖ وَإِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [الشورى: **15**].

3- وحدة الصف:

من أعظم المشاعر الإسلامية الصلاة، يؤديها المسلمون خمس مرات في اليوم تحت سقف واحد، يقيمون صفوفهم كالبنيان المرصوص، كلهم سواسية أمام الله، لا فرق بين أبيض وأسود، ولا عربي ولا عجمي، لا كبير إلا الله نكررها حتى تزول الفوارق بين البشر، ونتجه بكليتنا إلى الله وحده، سمع الله لمن حمده، تذكير بأن الله يسمع كل حامد وشاكر، بكل هذه الروحانية يتجه قلبك إلى الله، هذا درس ينبغي على الأمة الانتباه له، ليست مجرد طقوس تؤدى، ولكنها أرواح تترقى في معارج المحبة والسلام، وكثير من المشاعر الدينة توحي بذلك.

بهذه الروح ينبغي على المسلمين لم شتاتهم، بعيدا عن المصالح الشخصية والولاءات الضيقة، والدعوات الهدامة، والتزاما بالمنهج الرباني ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: **103**]، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفۡشَلُواْ وَتَذۡهَبَ رِيحُكُمۡۖ﴾ [الأنفال: **46**]، فإذا انكسر غطاء الوعاء الذي يحفظ للإمة ريحها الزكية، تناثر في الهواء وصار هباء منثورا، "فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات النظر، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها، مهما تبين له وجه الحق فيها"[113].

الخاتمة

بعد جولة في موضوع (الاحتجاج بالآباء في القرآن الكريم) دراسة موضوعيه؛ خلصت الدراسة إلى جملة من أهم النتائج والتوصيات:

أولا: أهم النتائج

- غرض الاحتجاج بالآباء المغالبة والمدافعة للخصم، ولو كانت الحجة ضعيفة.
- إن نمط الاحتجاج بالآباء وثيق الصلة بالمجتمع الجاهلي الوثني؛ إذ كل الآيات التي تناولت الاحتجاج بالآباء مكية، عدى آية واحد في سورة المائدة، وهي أيضا تخاطب مشركي العرب.
- لما بهت المشركون عن الجواب احتجوا بعدم السماع من آبائهم، مغالطة وهربا من الإفحام.
- تعظيم الآباء يدفع الأبناء إلى الاحتجاج بأفعالهم والتمسك بكل ما وجدوا عليه آبائهم، ولو كان ذلك مخالفا للعقل والمنطق.
- تعطيل العقل وتجهيل المجتمع منهج متبع لأغراض تعود بالنفع على الزعماء والساسة؛ ليُبقوا الولاء ومصدر الدخل متدفقا.
- إن محاربة التقليد لا يمكن أن تتحقق إلا بنشر الوعي، والدعوة إلى السلم الاجتماعي.

ثانيا: التوصيات

- يوصي الباحث بإقامة الندوات والمؤتمرات لنشر الوعي الكافي، وللتحذير من هذا الداء الذي يقسم فئات المجتمع إلى جماعات وأحزاب.
- كما يوصي العاملين في حقل التعليم أن يبثوا روح التسامح والمحبة، وأن ينأوا بأنفسهم عن الولاءات الضيقة؛ لأنهم قدوة المجتمع مصلحوه.
- كما يوصي بعمل دراسات للأسباب التي أدت إلى تمزق وحدة الصف المسلم، والذي أضعف كيان الأمة، وضيع مقدراتها الفكرية والمادية.

وسبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين!

المراجع

1) الاعتصام، إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: سليم الهلالي، دار ابن عفان – السعودي، ط1، 1412هـ/ 1992م.
2) إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: طه عبدالرؤوف، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، ط1، 1388هـ.
3) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين عبدالله بن عمر البيضاوي، تحقيق: محمد عبدالرحمن، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1، 1418هـ.
4) البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1، 1408هـ/ 1988م.
5) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس، ط1، 1984م.
6) التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي، تحقيق: عبدالله الخالدي، دار الأرقم – بيروت، ط1، 1416هـ.
7) التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر – بيروت، ط1، 1401هـ.
8) التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي – بيروت، ط1، 1405هـ.
9) تفسير ابن عرفة، محمد بن محمد ابن عرفة، تحقيق: جلال الأسيوطي، دار التب العلمية – بيروت، ط1، 2008م.
10) تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ/ 1999م.
11) التفسير الحديث، دروزة محمد عزت، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة، ط1، 1383هـ.
12) تفسير الشعراوي (الخواطر)، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، ط1، 1997م.
13) التفسير المظهري، محمد ثنا الله المظهري، مكتبة الرشدية – باكستان، ط1، 1412هـ.
14) تلبيس إبليس، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي ابن الجوزي، دار الفكر – بيروت، ط1، 1421هـ/ 2001م.
15) تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، دار إحياء التراث – بيروت، ط1، 2001م.
16) تيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ، 2000م.
17) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ، 2000م.
18) جامع البيان في القراءات السبع، عثمان بن سعيد أبو عمرو الداني، جامعة الشارقة – الإمارات، ط1، ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.
19) جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبدالله ابن عبد البر، دار ابن الجوزي – السعودية، ط1، 1414هـ/ 1994م.
20) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط2، 1384هـ/ 1964م.
21) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي، تحقيق: على عبد الباري عطية، دار الكتب العليمة – بيروت، ط1، 1415هـ.
22) زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط1، 1422هـ.
23) صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ.
24) صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج القشيري، دار إحياء التراث – بيروت.

25)فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير – دمشق، ط1، 1414هـ.
26)في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم الشاربي، دار الشروق – بيروت، ط17، 1412هـ.
27)الكشاف في حقائق وغوامض التنزيل، جار الله محمود بن عمرو الزمخشري، دار الكتاب العربي – بيروت، ط3، 1407هـ.
28)لسان العرب، محمد بن مكرم ابن منظور، دار صادر – بيروت، ط3، 1414هـ.
29)لطائف الإشارات، عبد الكريم بن هوازن القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، ط3.
30)مجموع الفتاوى، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: أنور الباز وآخرين، دار الوفاء، ط3، 1426هـ.
31)المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبدالحق بن غالب ابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1422هـ.
32)مراح لبيد لكشف معاني القرآن المجيد، محمد بن عمر الجاوي، تحقيق: محمد الصناوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1417هـ.
33)المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله محمد بن عبدالله الحاكم، تحقيق: مصطفى عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1411هـ/ 1990م.
34)معالم التنزيل في تفسير القرآن، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث – بيروت، ط1، 1420هـ.
35) مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط3، 1420هـ.

الهوامش

(1) تهذيب اللغة، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، دار إحياء التراث – بيروت، ط1، 2001م، مادة (حَجَجَ)، 3/ 251.
(2) أخرجه البخاري في صحيحه، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ، رقم (6614)، 8/ 126، ومسلم في صحيحه، مسلم بن الحجاج القشيري، دار إحياء التراث – بيروت، رقم (2652)، 4/ 2042.
(3) ينظر: لسان العرب، محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر – بيروت، ط3، 1414هـ، مادة (حَجَجَ)، 2/ 226.
(4) المصدر السابق، مادة (حَجَجَ)، 2/ 226.
(5) التعريفات، علي بن محمد الجرجاني، تحقيق: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي – بيروت، ط1، 1405هـ، ص112.
(6) التعاريف، محمد عبد الرؤوف المناوي، تحقيق: محمد رضوان الداية، دار الفكر – بيروت، ط1، 1401هـ، ص268.
(7) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر – تونس، ط1، 1984م، 2/ 46.
(8) ينظر: جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبدالله ابن عبد البر، دار ابن الجوزي – السعودية، ط1، 1414هـ/ 1994م، 2/ 992، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق: طه عبدالرؤوف، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، ط1، 1388هـ، 2/ 200، 201.
(9) ينظر: المصدر السابق.
(10) المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله محمد الحاكم، تحقيق: مصطفى عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1411هـ/ 1990م، كتاب: الإيمان، رقم (152)، 1/ 112. ثم قال عنه: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.
(11) ينظر: تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: سامي سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط2، 1420هـ/ 1999م، 5/ 347، 348.
(12) جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، 2/ 977.
(13) ينظر: مجموع الفتاوى، تقي الدين أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق: أنور الباز وآخرين، دار الوفاء، ط3، 1426هـ، 20/ 16.
(14) بتصرف: جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، 2/ 988.

(15) تفسير القرآن العظيم، 3/ 131.

(16) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص234.

(17) لطائف الإشارات، القشيري، 1/ 452.

(18) المحرر الوجيز، ابن عطية، 2/ 491.

(19) وهي: البقرة: 170، المائدة: 104، الأنعام: 148، الأعراف: 28، 70، 173، يونس: 78، هود: 53، 62، إبراهيم: 10، النحل: 35، الأنبياء: 53، المؤمنون: 24، 83، الشعراء: 74، النمل: 68، القصص: 36، لقمان: 21، سبأ: 43، الزخرف: 22، 23، الصافات: 17، الواقعة: 48.

(20) (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا...) المائدة: 104.

(21) معالم التنزيل في تفسير القرآن، محيي السنة أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: عبدالرزاق المهدي، دار إحياء التراث – بيروت، ط1، 1420هـ، 3/ 365.

(22) الكشاف في حقائق وغوامض التنزيل، جار الله محمود بن عمرو الزمخشري، دار الكتاب العربي – بيروت، ط3، 1407هـ، 4/ 291.

(23) التسهيل لعلوم التنزيل، محمد بن أحمد ابن جزي الكلبي، تحقيق: عبدالله الخالدي، دار الأرقم – بيروت، ط1، 1416هـ، 2/ 272، وهم الفلاسفة الدهرية: الذي يرجعون كل شيء إلى الطبيعة وينكرون الصانع.

(24) مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر الرازي، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط3، 1420هـ، ٢٧/ ٦٨٠.

(25) جامع البيان في القراءات السبع، عثمان بن سعيد أبو عمرو الداني، جامعة الشارقة – الإمارات، ط1، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م، 4/ 1585.

(26) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٧/ ٦٨٠، الكشاف، الزمخشري، 4/ 292.

(27) في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم الشاربي، دار الشروق – بيروت، ط17، 1412هـ، 5/ 3232.

(28) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ، 2000م، 19/ 25.

(29) الكشاف، الزمخشري، 3/ 183.

(30) المصدر السابق، 3/ 183.

(31) مفاتيح الغيب، الرازي، 23/ 271.

(32) فتح القدير، محمد بن علي الشوكاني، دار ابن كثير – دمشق، ط1، 1414هـ، 3/ 569.

(33) تفسير الشعراوي (الخواطر)، محمد متولي الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، ط1، 1997م، 16/ 10009.

(34) في ظلال القرآن، 4/ 2464.

(35) جامع البيان، الطبري، 19/ 579.

(36) الكشاف، الزمخشري، 3/ 411.

(37) في ظلال القرآن، 5/ 2694.

(38) الكشاف، الزمخشري، 4/ 72.

(39) ينظر في سبب نزول الآية: المستدرك على الصحيحين للحاكم، رقم: (٣٦١٧)، 2/ 469، ومعالم التنزيل، البغوي، 4/ 53، 54.

(40) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، ناصر الدين عبدالله بن عمر البيضاوي، تحقيق: محمد عبدالرحمن، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1، 1418هـ، 5/ 24.

(41) زاد المسير في علم التفسير، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، ط1، 1422هـ، 3/ 560.

(42) في ظلال القرآن، 5/ 3009.

(43) الكشاف، الزمخشري، 2/ 33.

(44) التحرير والتنوير، 17/ 92.

(45) ينظر: في ظلال القرآن، 4/ 2385، والتحرير والتنوير، 17/ 94.

(46) لطائف الإشارات، عبد الكريم بن هوازن القشيري، تحقيق: إبراهيم البسيوني، الهيئة المصرية العامة للكتاب – مصر، ط3، 2/ 507.

(47) فتح القدير، الشوكاني، 3/ 486.

(48) ينظر: في ظلال القرآن، 4/ 2385.

(49) معالم التنزيل، البغوي، 4/ 157.

(50) التفسير المظهري، محمد ثنا الله المظهري، مكتبة الرشدية – باكستان، ط1، 1412هـ، 3/ 302.

(51) مراح لبيد لكشف معاني القرآن المجيد، محمد بن عمر الجاوي، تحقيق: محمد الصناوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1417هـ، 1/ 407.

(52) ينظر في معاني البحيرة والسائبة والوصيلة والحام: المحرر الوجيز، ابن عطية، 2/ 247، 248.

(53) **البحيرة**: فعيلة بمعنى مفعولة، وبَحَرَ شق، كانوا إذا أنتجت الناقة عشرة بطون شقوا أذنها نصفين طولا فهي مبحورة، وتركت ترعى وترد الماء، ولا ينتفع منها بشيء، ويحرم لحمها إذا ماتت على النساء ويحل للرجال، وقال ابن عباس كانوا يفعلون ذلك بها إذا أنتجت خمسة بطون، وقال مسروق إذا ولدت خمسا أو سبعا شقوا أذنها. **السائبة**: هي الناقة التي تسيب للآلهة، والناقة أيضا إذا تابعت اثنتي عشرة إناثا ليس فيهن ذكر سيبت. المحرر الوجيز، ابن عطية، 2/ 247، 248.

(54) جامع البيان، الطبري، 11/ 137.

(55) الكشاف، الزمخشري، 1/ 685، ومفاتيح الغيب، الرازي، 12/ 448.

(56) أنوار التنزيل، البيضاوي، 2/ 146.

(57) معالم التنزيل، البغوي، 2/ 186، 187، المحرر الوجيز، ابن عطية، 2/ 390، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 7/ 186

(58) فتح القدير، الشوكاني، 2/ 226.

(59) المصدر السابق، 2/ 226.

(60) أنوار التنزيل، البيضاوي، 3/ 10.

(61) تفسير الشعراوي، 19/ 11704.

(62) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 14/ 74.

(63) ينظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، 4/ 352.

(64) مفاتيح الغيب، الرازي، 25 /124.

(65) تفسير القرآن العظيم، 6/ 347.

(66) فتح القدير، الشوكاني، 4/ 278.

(67) مفاتيح الغيب، الرازي، 25 /125.

(68) تلبيس إبليس، ابن الجوزي، ص74.

(69) الكشاف، الزمخشري، 1/ 213.

(70) المصدر السابق، 1/ 214.

(71) جامع البيان، الطبري، 3/ 307، 308.

(72) مفاتيح الغيب، الرازي، 5/ 189.

(73) تلبيس إبليس، أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي، دار الفكر – بيروت، ط1، 1421هـ/ 2001م، ص74.

(74) التحرير والتنوير، 8/ 27.

(75) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبدالحق بن غالب ابن عطية، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط1، 1422هـ، 5/ 50، 51.

(76) ينظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، 5/ 89.

(77) ينظر: تفسير ابن عرفة، محمد بن محمد ابن عرفة، تحقيق: جلال الأسيوطي، دار التب العلمية – بيروت، ط1، 2008م، 3/ 321.

(78) الكشاف، الزمخشري، 3/ 589.

(79) في ظلال القرآن، 5/ 2913.

(80) ينظر: الاعتصام، إبراهيم بن موسى الشاطبي، تحقيق: سليم الهلالي، دار ابن عفان – السعودي، ط1، 1412هـ/ 1992م، 2/ 688.

(81) التحرير والتنوير، 8/ 101.

(82) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المناقب، باب: جهل العرب، 4/ 184. وتبدأ هذه الآيات من قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴿١٣١﴾﴾ [الأنعام: **131**]، وتختم بالآية التي ذكرها.

(83) تفسير القرآن العظيم، 3/ 347.

(84) لطائف الإشارات، القشيري، 1/ 451.

(85) المصدر السابق، 1/ 506.

(86) في ظلال القرآن، 3/ 1184.

(87) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط2، 1384هـ/ 1964م، 14/ 249.

(88) ينظر: تفسير القرآن العظيم، 4/ 115، فتح القدير، الشوكاني، 2/ 388.

(89) أنوار التنزيل، البيضاوي، 4/ 207.

(90) التحرير والتنوير، 21/ 96.

(91) المصدر السابق، 18/ 71.

(92) ينظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، 1/ 12.

(93) تفسير القرآن العظيم، 2/ 58.

(94) ينظر: مثلا: سورة المائدة: 104، الأعراف: 28، الأنعام: 148، الزخرف: 20، 21، 22.

(95) فتح القدير، الشوكاني، 1/ 407.

(96) التحرير والتنوير، 12/ 202.

(97) تفسير القرآن العظيم، 6/ 279.

(98) ينظر: في ظلال القرآن، 5/ 2736، وتفسير الشعراوي، 18/ 11178.

(99) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الآلوسي، تحقيق: على عبد الباري عطية، دار الكتب العليمة – بيروت، ط1، 1415هـ، 11/ 16.

(100) ينظر: ص 18.

(101) معالم التنزيل، البغوي، 3/ 558.

(102) ينظر: في هذا البحث: الاحتجاج بالآباء مقترن بلفظة الصريح، ص6 وما بعدها.

(103) صحيح مسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم (49)، 1/ 69.

(104) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، رقم (10)، 1/ 11.

(105) جامع البيان، الطبري، 17 /279.

(106) بتصرف: لطائف الإشارات، القشيري، 2/ 314.

(107) في ظلال القرآن، 4/ 2190.

(108) تفسير القرآن العظيم، 2/ 433.

(109) في ظلال القرآن، 2/ 852.

(110) تيسير الكريم الرحمن، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420هـ، 2000م، ص632.

(111) في ظلال القرآن، 5/ 2745.

(112) البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط1، 1408هـ/ 1988م، 7/ 46، 47.

(113) في ظلال القرآن، 3/ 1529.